بيجوفيتش: في الأخلاق والإيمان الدينيّ
محمد يوسف عدس

قرأت محاورات أفلاطون باستمتاع شديد وأنا طالب في السنة الأولى بقسم الدراسات الفلسفية (سنة 1953-1954) وقد أثار إعجابي بها وحفّزني على قراءتها تعليقات شيّقة من أحد أساتذتي هو الدكتور أحمد فؤاد الأهواني .. وعدت لقراءتها مرة ثانية أثناء ترجمتي لكتاب علي عزت بيجوفيتش الموسوم بعنوان (الإسلام بين الشرق والغرب) وكان ذلك في سنة 1992 وقد أصبحت كهلا فانكشفت لي جوانب منها لم أنتبه إليها في القراءة الشبابية الأولى .. وها أنذا أعود إليها مرة ثالثة وأنا في سن الشيخوخة حيث أراجع بروفات الطبعة الثالثة من الكتاب المذكور .. فقد اقتبس المؤلف فقرات من (محاورة فيدون) يتحدث فيها أفلاطون بكلام حكيم عن الخُلق الأصيل يقول: "إن الشجاعة العادية ليست إلا جُبْناً ، والاعتدال العاديّ ليس إلا شهوة خفيّة للذّة" .

ويرى أفلاطون أن هذا النوع من الفضائل ليس إلا تجارة .. أو هو على حدّ قوله: " شبح فضيلة أو هو فضيلة العبيد .. أما الإنسان الأخلاقيّ على وجه الحقيقة فيتملّكه شوق واحد هو أن ينأى بنفسه عن الماديّ وأن يلتصق بما هو روحيّ ..." ؛ فأفلاطون كان يعتقد أن الجسد قبر للروح .. و أن الروح في هذا القيد الأرضيّ لا يمكن أن تصل إلى غايتها ومُبتغاها .. وغايتها هي المعرفة الحقيقية .. هذه المعرفة لا تأتي إلا بعد الموت..." .

ويرتّب أفلاطون على ذلك حقيقة مذهلة لم تكن لتخطر على بالي عند قراءتي المبكّرة لنفس النّص حيث يقول : " إن هذا هو السبب في أن رجل الأخلاق لا يهاب الموت .. فلكي تحيا حياة حقيقية وتفكّر تفكيرا حقيقيا لا بد أن تكون مستعدّا دائما للموت..." . فإذا سألت أفلاطون لماذا يجب على رجل الأخلاق أن يكون دائما على استعداد للموت.. وأن يوطّن نفسه على التعايش مع هذه الحقيقة الموجعة يجيبك قائلا: " لأن الشر هو السلطة التي تتحكم في هذا العالم .. والأخلاق والسلطة الحاكمة لا يمتزجان .. إنهما دائما في عداء وخصام ..." ، فرجل السلطة الباطشة يؤمن بأن استئصال هذه القلّة العنيدة من البشر هو الضمان الوحيد والأكيد لاستمراره في السلطة على هذه الأرض .. ورجل الأخلاق (من ناحيته) إنما يتطلع إلى عالم آخر تتحقق فيه العدالة المطلقة .. فهو يستمد قوّته وشجاعته من هذا العالم الآخر.. ولا يعبأ بأي تضحية أو تنكيل يأتيه من جانب هذه السلطة الباغية ..

أفلاطون إذن قد استطاع (ربما بإلهام من الله) أن يضع يده قبل ظهور المسيحية والإسلام على الحقيقة الخالدة : وهي أن الأخلاق والدين متلازمان .. هكذا أدّت تأمّلات أفلاطون الأخلاقية به إلى موقف ديني .. وهذا ما لفت نظر علي عزت بيجوفيتش إلى الفكر الأخلاقي لأفلاطون، وهو (أعني بيجوفيتش) المفكر الذي تتلمذ على سيرة سيّد البشر محمد صلى الله عليه وسلم الذي أعلن في بلاغه للعالم أنه قد بُعث ليتمم مكارم الأخلاق ... ويعلم أنه لما سُئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن خلقه قالت: كان خلقه القرآن .. هذا القرآن الذي يزكّي فيه رب العزّة نبيه بقوله: { وإنك لعلى خلق عظيم} ...

من الناحية التاريخية ، يرى بيجوفيتش أن الفكر الأخلاقي هو أقدم الأفكار الإنسانية، ولا يسبقه في هذا سوى الفكر الديني، الذي هو قديم قِدَم الإنسان نفسه .. وقد التحم الفكران معا عبْر التاريخ .. ففي تاريخ علم الأخلاق، لم يوجد عمليا مفكر جادّ لم يكن له موقف من الدين ، إما عن طريق استعارة الضرورة الدينية كمبدأ للأخلاق .. أو عن طريق محاولة إثبات العكس .. ولذلك يمكن القول: أن تاريخ علم الأخلاق بأكمله قصة متصلة لتشابك الفكر الديني والأخلاقي .. ويؤكد بيجوفيتش هنا بأن رجال الأخلاق المتديّنين هم الذين يسودون، وأما الملحدون فلم يسودوا أبدا ...

ولكن يلفت بيجوفيتش نظرنا إلى حقيقة لا ينبغي أن تغيب عن وعينا وهي ظهور حركة سُمّيت بـ (الأخلاق العلمانية) المتجرّدة من الدين .. وذلك خلال القرن التاسع عشر .. ظهرت في فرنسا وانجلترا وألمانيا وأمريكا وإيطاليا .. وأُطلق عليها أسماء مختلفة مثل : جمعيات الثقافة الأخلاقية، مؤسسات الإنعاش، الجمعيات الأخلاقية .. إلى آخر هذه الأسماء التي لا تدل على مضمون أخلاقي حقيقي سوى الانفلات من الإيمان .. وإغلاق صفحة الدين في مدارس التعليم العام ومن الحياة الاجتماعية .. ولأننا متخلفون عن أوربا قرنين من الزمن بدأت في القرن الواحد والعشرين تظهر عندنا مؤسسات مدنية مماثلة تدعو إلى هذا الاتجاه في التعليم المدرسي..

وتحت تأثير موجة الإرعاب والترهيب من نمو الاتجاهات الدينية الإسلامية (الإرهابية بزعمهم) أُقتُرح (بل قُل فُرض) على وزارة التعليم في مصر برامج دراسية من قِبل مستشارين أمريكيين (مقيمين وزائرين) .. برامج خالية من أي توجيه ديني حقيقي .. وفُرض على مؤلّفي كتب المطالعة مثلا حذف الآيات القرآنية منها .. واخترعوا بدلا من كتب الدين كتبا تسمى كتب الأخلاق دون إشارة إلى أي دين .. ولا أحب أن أخوض في تفاصيل هذا الموضوع .. لسبب واضح جدا سبق أن أشرت إليه في كتابات سابقة وهو أن قضية التعليم العام في مصر قد طويت صفحتها بالكامل ولا يمكن الحديث عنها الآن سلبا أو إيجابيا، فقد انهار النظام التعليمي

تماما ولم يعد أمامنا إلا هياكل فارغة متهرّئة أو أطلال من نظام مدمّر كان اسمه التعليم العام في مصر .. وأرى أن كل قرش يُنفق على هذه الأطلال لا جدوى منه .. فقد حلت مكانه مؤسسة غير رسمية هي مؤسسة الدروس الخصوصية .. ومؤسسة أخرى اسمها التعليم الخاص .. وهما مزيج من التعليم الأجنبي والتعليم المحلّي يغلب عليهما الاتجاهات التجارية بالدرجة الأولى .. والهدف النهائي هو : التعليم للأغنياء والقادرين فقط ولا شيء للفقراء وغير القادرين .. ومن المؤكد أن هذه المنظومات التعليمية لا يمكن أن تأخذ مأخذ الجدّ قضايا الوطنية والتربية والأخلاق في هذا الوطن التعيس بقياداته الجاهلة التي لا تعرف لها انتماء ولا اتجاها ولا إرادة .. اللهم إلا إرادة السيد الأجنبي الذي يملي خطته و يفرض اتجاهه هو وانتماءه الخاص على هذه الأمة ...

والمهم فيما يتعلق بموضوع الأخلاق والدين أننا إذ نحاول فصم العروة بينهما إنما نحاول في حقيقة الأمر هدم الدين والأخلاق معا .. ولست أدري من المستفيد من هذه الجريمة الإنسانية والوطنية ...!!

لذلك يؤكد بيجوفيتش مُلِحّا على حقيقة الصلة العضوية بين الدين والأخلاق إذ يقول: " لا يمكن بناء الأخلاق إلا على الدين .. ثم يتعرّض لإشكالية جوهرية في طبيعة هذه العلاقة قد تؤدي إلى سوء الفهم أو ارتباك الفهم عند الذين يلاحظون السلوك الخلقي في الممارسات العملية اليومية .. فقد يصادفون رجال دين لا أخلاق لهم .. أو أناس يسلكون سلوكا أخلاقيا واضحا وهم غير ملتزمين دينيا ..

لا ينكر علي عزت بيجوفيتش هذه الظاهرة الاجتماعية .. ولكنه يفسرها لنا فيقول: علينا أن نفهم حقيقة أساسية في العلاقة بين الأخلاق والدين .. فرغم أنهما متلازمان متساندان إلا أنهما ليسا شيئا واحدا .. فالأخلاق كمبدأ لا يمكن وجودها بغير دين .. أما الأخلاق كممارسة أو حالة معينة من السلوك فإنها لا تعتمد بطريق مباشر على التّديّن..

ويضرب على ذلك مثالا بالثورات التي شهدتها البشرية بصرف النظر عن مصدرها الأيديولوجي .. في كل هذه الثورات كان يسيطر على المنخرطين فيها الحماس ومشاعر الأخوة والإقبال على التضحية بالنفس والشجاعة والجرأة في مواجهة المخاطر والمشقّات .. وكل هذه المشاعر والقيم مصدرها الحقيقي هو دين ما .. دين يؤمن بالغيب والحياة الآخرة .. ولا يمكن أن تصدر من أي حقيقة مادية أو اجتماعية أخرى .. فلو توقف الإنسان لحظة ليفكر: (لماذا أُقبل على التضحية بحياتي وأنا لا أملك في هذه الدنيا إلا حياة واحدة ؟ وليس هناك حياة أخرى أُواصل وجودي فيها

بعد الموت ؟؟) لو توقف إنسان ليسأل نفسه هذا السؤال لسارع بالخرج من المعركة هربا من الموت الذي ينتهي على عتبته كل أمل في الحياة ..

هذا بالضبط ما كان يفعله الجنود الصرب عندما كانوا يواجهون المسلمين المجاهدين في حرب البوسنة وجها لوجه .. وهو نفس ما كان يفعله الجنود اليهود في غزة .. فأولئك وهؤلاء كانوا يواجهون شبابا لا يهابون الموت .. لأنهم يعلمون من دينهم الذي يؤمنون به أنهم فور استشهادهم ينتقلون إلى حياة أخرى وعدهم الله بها .. فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون .. فرحين بما آتاهم الله من فضله .. أما الجندي الصربي أو الإسرائيلي فهو لا يؤمن إلا بهذه الدنيا ويتمنى أن يفلت من الموت في كل مرة حتى يذهب في إجازة نهاية الأسبوع ليأكل ويشرب ويرقص مع عشيقته .. ويسهر حتى الصباح بعد أن يكون قد أنفق ما جمع من مرتبه في الجيش خلال أيام الأسبوع ...

ينتقل بنا علي عزت بيجوفيتش إلى نقطة أخرى وهو يحاول شرح منظومته الفكرية في مجاليْ الأخلاق والإصلاح فيقول: " يؤدي الإلحاد (إنكار الدين) حتما إلى إنكار الأخلاق .. ولذلك فإن أي بعث أخلاقي حقيقي يبدأ دائما بيقظة دينية .. فالأخلاق على حد قوله: إنما هي دين تحوّل إلى قواعد للسلوك يعني تحول إلى مواقف إنسانية تجاه الآخرين .. فإذا كان لزاما علينا أن نؤدي واجبنا الأخلاقي – بصرف النظر عما يواجهنا من مصاعب أو مخاطر – فإن هذه الدعوة لا يمكن تبريرها إذا كان هذا العالم هو العالم الوحيد.. وإذا كانت حياتنا الدنيا هي الحياة الوحيدة .. وهنا تبرز نقطة الانطلاق لكل من الدين والأخلاق ...

في هذه اللحظة (مساء السبت 28 فبراير 2009) وأنا أواصل الكتابة أسمع على قناة الجزيرة بداية حلقة جديدة من برنامج زيارة خاصة .. وكانت الزيارة لشخصية آسرة كان لي مع صاحبها ذكريات لا يمكن أن تُنسى مهما طال الزمن .. أما صاحب هذه الشخصية فهو "مختار أُمْباوْ" مدير عام منظمة اليونسكو الذي تشرفت بالعمل تحت قيادته سبع سنوات قبل أن يعتزل الوظيفة ويعود إلى وطنه (السنغال) ليستقر فيه مع أسرته .. إنه الآن في السابعة والثمانين من عمره .. يحيا حياة روحية مطمئنة .. بعد جهاد شديد في عمله الشاق بمنظمة اليونسكو .. حيث واجه بمفرده حملات دعائية كاذبة من الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل .. واجه المؤامرات الأمريكية بالحجة والمنطق .. ولم يستسلم للضغوط التي مورست عليه.. ولم يتراجع إلى آخر لحظة عن مساندة القضية الفلسطينية وعن حق ممثلي منظمة التحرير بمقعد مراقب في الجمعية العامة لمنظمة اليونسكو .. ومقاومة أعمال الحفر والاستكشاف الإسرائيلية تحت المسجد الأقصى وحوله .. باعتبار إسرائيل دولة احتلال بمقتضى قرار الأمم المتحدة .. ومن ثم لا يجوز لها أن تقوم بأعمال حفر أو استكشاف في أراضي الدولة المحتلة وتعرّض آثارها الثقافية والدينية للخطر

... لقد تفاقمت المواجهة مع أمريكا وإسرائيل إلى أبعاد تآمرية خطيرة .. ولكن رجل الأخلاق المعتصم بدينه وإيمانه لم ينكسر ولم يستسلم للطغيان والمؤامرت ..

وهكذا ترى أن شخصية "مختار أمباو" من أصدق النماذج لشخصية معاصرة تتمثل فيها قوة الإيمان الدينيّ والموقف الأخلاقي في آن واحد .. نحن إذن لم نخرج من إطار موضوعنا الأساسي .. في العلاقة بين الدين والأخلاق الذي نستعرضه مع علي عزت بيجوفيتش ..وقد كان هو نفسه نموذجا آخر من هذه النماذج الإنسانية الرائعة لتعانق الإيمان الديني الصحيح مع الأخلاق الصحيحة ...

أشار بيجوفيتش فيما سبق إلى أنه من الممكن أن نتصور رجل دين لا أخلاق له، وبالعكس قد نصادف رجلا غير ملتزم دينيا ولكنه يمارس حياة أخلاقية فى علاقاته الإجتماعية .. ولمزيد من الإضاءة فى فهم هذه النقطة يضيف بعض التفاصيل الشارحة فيقول: الدين نوع من المعرفة، والأخلاق هي الحياة التي يحياها الإنسان وفقًا لهذه المعرفة، وهنا يظهر الاختلاف بين المعرفة والممارسة.. فالدين إجابة على سؤال: كيف تفكر وكيف تؤمن؟ بينما الأخلاق إجابة على سؤال: كيف تحكم الرغبة، كيف تهدف، أو كيف تحيا وكيف تتصرف؟ .. تأمل فى هذه الآية التى تربط بين الإيمان والعمل الصالح: (... الذين آمنوا وعملوا الصالحات...) إنها تتكرر بصيغتها أو معناها في القرآن أكثر من خمسين مرة، كأنما تؤكد لنا ضرورة توحيد أمرين اعتاد الناس على الفصل بينهما.. إن هذه الآية تعبّر عن الفرق بين الدين (الإيمان) وبين الأخلاق (عملُ الصالحات) كما تأمر في الوقت نفسه بضرورة أن يسير الاثنان معًا جنبا إلى جنب .. كذلك يكشف لنا القرآن عن علاقة أخرى عكسية بين الأخلاق والدين، فيوجه نظرنا إلى أن الممارسة الأخلاقية قد تكون حافـزًا قويًا على التدين: (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبّون) .. فمعنى الآية هنا لا يقول: «آمن لتصبح خيِّرًا» وإنما على العكس يقول: «افعل الخير تصبح مؤمنًا». وفي هذه النقطة نرى إجابة على سؤال: كيف يمكن للإنسان أن يقوّي إيمانه؟ والإجابة هي: افعل الخير تجد الله أمامك .. واظب على فعل الخيرات لوجه الله تقترب من الله ويربو إيمانك ...

و هكذا يمضى بيجوفيتش ليعمّق فكرته فى هذا الإطار فُيَقَدِّم لنا نماذج من الخبرة العملية في عالم الأخلاق .. حيث نرى كثيرًا من الأمثلة على أخلاقية أناس لا يَكْتَرِثُون بتعاليم الدين أو لا يؤمنون بالله حق الإيمان.. فليس في الأمر ثبات دائم ، بل يوجد انفصام بين العقيدة الاسمية المعلنة وبين سلوك صاحبها .. ومن الناحية الأخرى نجد أناسا مُتَمَسِّكين بالدين تَمَسُّكًا شديدًا بل قد يكونون من العاملين في الدعوة الدينية ، ومع ذلك لا تجد سلوكهم يختلف في شيء عن

سلوك الماديين العتاة ، والعكس أيضًا صحيح : فهناك أناس كثيرون منسوبون إلى التفكير المادِّي ومع ذلك يتمتعون بإخلاص شديد ومستعدون للمعاناة بل للنضال من أجل الآخرين ...

من هذا التشوُّش وعَدَمِ الثبات تنشأ الكوميديا العبثية فَتُحَيِّرُ عقول المفكرين الجادين ، حتى أكثرهم استنارة .

ليست هناك أذن علاقةٌ تلقائية بين عقيدتنا وسلوكنا ، فسلوكنا ليس بالضرورة من اختيارنا الواعي ولا هو قاصر عليه .. إنه على الأرجح نتيجة التنشئة والمواقف التي تشكَّلت في مرحلة الطفولة ، أكثر من نتيجة للمعتقدات الفلسفية والسياسية الواعية التي تأتي في مرحلة متأخِّرة من مراحل العمر .. فإذا تربّى شخصٌ ما في طفولته على أن يحترم كبارَ السنِّ وأن يحافظ على كلمته، وأن يحكمَ على الناس بصفاتهم وليس بمظهرهم ، وأن يُحِبُّ الآخرين ويساعدهم ، وأن يقولَ الصدق ، وأن يكره النفاق وأن يكون إنسانًا بسيطًا أَبِيًّا .. إذا نشأ على كل هذه الأخلاق الحميدة فستكون هي صفاته الشخصية ، بصرف النظر عن أفكاره السياسية الأخيرة أو فلسفته الاسمية التي يعتنقها ...

هذه الأخلاقيات (إذا نظرنا إليها نظرة تحليلية) مدينة للدين ومنقولة منه ..ومعنى ذلك أن التعليم قد استطاع أن ينقل إلينا نظرات وفضائل دينية أصيلة معينه في ما يتصلُ بالعلاقة بين الإنسان والإنسان ، ولكنه لم ينقلْ معها الدينَ الذي هو مصدرُ هذه الأخلاقيات .

في هذه الحالة لا توجدُ إلا خطوة واحدة بين التخلِّي عن هذا لدين والتخلِّي عن أخلاقياته .. ولكن بعض الناس لا يُقْدِمُون على هذه الخطوة ، ومِن ثَمَّ يظلُّون (منقسمين) بين دينٍ لا يَتَّبِعُونه وأخلاقيات هذا الدين التي يستمرُّون في اتباعها ، برغم أنهم لا يُؤمِنُون بالأساس الذي أُقِيْمَتْ عليه هذه الأخلاق .. هذا الموقف يهيّئ الفرصةَ لبروز ظاهرتين تُعَقِّدَان البحث :[الملحدون الأخلاقيون ، والمؤمنون الذين لا أخلاق لهم] ...

* ينتهي ((عزت بيجوفيتش)) من تحليلاته للأوضاع الأخلاقية إلى نتيجتين هامتين : النتيجة الأولى ، هي أن الأخلاق من حيث هي مبدأ لا توجدُ بلا دين ، بينما الأخلاق العملية يمكنُ أن توجدَ في غياب الدين ، فهي توجد – حسب تعبيره – (بحكم القصور الذاتي) ، ومن ثَمَّ فإنَّ أبرزَ خصائصها أنها واهنة بالغة الوهن ، والسبب عنده أنها قد انفصلت عن المصدر الذي مَنَحَها قُوَّتَها المبدئية ، ألا وهو الدين .. أما النتيجة الثانية فهي أنه لا يُمْكِنُ بناء نظام أخلاقي على الإلحاد والمثال على ذلك ما حَدَثَ في النظام الماركسي بالاتحاد السوفيتي ، فلكي يُؤَسِّسُ

الماركسيون مجتمعًا ويحافظوا على وجودِه واستمراره كان عليهم أن يطلبوا من الناس مثاليةً وتضحيةً أكثر مما طَلَبَ أيُّ نبيّ من أتباعه باسم الدين .

وفي هذا يقول : ((عزت بيجوفيتش)) : (إنَّ الإلحاد إذا وَضِعَ موضعَ الممارسة ثم حاولَ بناء مجتمع فإنه يضطر اضطرارًا إلى أن يَستمدَّ بضاعته من الأشكال القائمة للأخلاق الاجتماعية ولكنه لا يَملكُ الوسيلة لحماية المبدأ الأخلاقي أمام هجوم دعاة المنفعة أو الأنانية أو اللا أخلاقية من أي نوع ، فالإلحاد عاجز ومنطقه أشلّ .. لماذا ؟ لأنه لا يستطيعُ أن يجيب عن سؤال بسيط مثل: إذا كنت سأحيا اليوم فقط وسأموت غدًا .. وأتلاشى في التراب إلى الأبد ، بلا قيامة ولا حساب ولا آخره ، فلم لا أعيش اليوم بدون قيود أو التزامات ما استطعت إلى ذلك سبيلاً ؟ ..

إنما تبقى المعايير الأخلاقية الموروثة فحسب في وعْي الناس ، وتحافظ عليها الدولة بدافع الضرورة المحضة ، وفي كلتا الحالتين فإن هذا النظام الأخلاقي الموروث مناقض للأيدلوجية الرسمية ولا يوجد له مكان فيها .